قراءة في ثلاث ومضات لحنان الجاي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

سأتناول في هذه المقالة ثلاث ومضات للكاتبة المغربية حنان الجاي التي تنشر ومضاتها في مجموعة سنا الومضة باسم "حنان نصري". وهذه الومضات عبارة عن ومضة بها بعض المشاكل الفنية الخاصة بالمنظور السردي نتيجة لاستعمال ألف ولام التعريف وومضتين جيدتين لها. ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن الومضة الأولى منشورة قبل الومضتين الجيدتين، فلقد نشرت في كتاب ومضات أغسطس 2014، أما الومضتان الجيدتان فنشرتا في نوفمبر 2014 على مجموعة سنا الومضة، الأمر الذي يدل على أن أسلوب الكاتبة يتطور نسبيا.

وسأبدأ هنا بتناول ومضة "اللقاء الثاني[8]" المنشورة على المجموعة في شهر أغسطس الماضي. ولابد أن أشير هنا إلى أن صيغة التعريف تفترض ارتباط الراوي بما يتم تعريفه داخل الومضة وانتماء هذا المعرَّف لعالمه، ومن هنا عندما يستعمل الراوي غير المشارك هذه الصيغة فإنه يخلق ارتباطا أو توحدا بينه وبين الشخصية، وكذلك بينه وبين مفردات العالم

[8] حنان الجاي. "اللقاء الثاني". **ومضات أغسطس 2014**. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن مجموعة سنا الومضة على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 65.

obeikandi.com

السردي قد يصل إلى مرحلة التقمّص، وهو أمر لا يتحمله السرد بضمير الغائب.

في ومضة "اللقاء الثاني"، يقول الراوي أو الراوية:

عاد واثقا من نفسه لإحياء الماضي، وجد الحاضر فاقدا للذاكرة.

وبعيدا عن عدم ضرورة عبارة "من نفسه" لأنها مشتملة بالضرورة في النعت "واثقا"، وبعيدا كذلك عن دقة أو عدم دقة حرف اللام قبل "إحياء"، فمن المفترض أن تكون الصياغة الدقيقة في نص قصير مثل الومضة هكذا: "عاد واثقا من إحياء الماضي"، نجد أن الماضي هنا ماضٍ مطلق، والأدق أن يتم استعمال "ماضيه"، وكذلك الأمر بالنسبة للحاضر الذي من الأدق أن يكون "حاضره".

لو كان الراوي مشاركا في الحدث، كان بإمكانه أن يستعمل صيغة التعريف بالألف واللام بالإشارة إلى الماضي والحاضر وسيكون مفهوما بالضرورة أن هذا الماضي وهذا الحاضر يخصان الراوي. لكن الومضة مكتوبة بضمير الغائب ولابد أن يكون الراوي دقيقا في استعمال الألفاظ: "عاد واثقا من إحياء ماضيه، وجد حاضره فاقدا للذاكرة". ونفس المشكلة نجدها في عنوان الومضة الذي كان من الأفضل أن يأتي بصيغة التنكير. كما أن العودة تعني العودة من الحاضر إلى الماضي هنا، أو انتقال الشخصية من

حياتها المعتادة في حاضرها الذي يخلو من الشخصية التي تنتمي للماضي وتمثل المحبوبة السابقة هنا إلى حاضر مغاير توجد فيه هذه المحبوبة.

هذا التأويل يجرنا إلى قضية أخرى خاصة بالتعريف لكلمة الحاضر؟ هل هو حاضر المحبوبة الغائبة عن النص؟ في الغالب هذا هو التأويل الأرجح، لأنها هي التي فقدت ذاكرتها ولم تعد تذكر عن ذلك العائد شيئا، الأمر الذي يجعل محاولته الرامية إلى إحياء الماضي مستحيلة. ووفقا لهذا التأويل، لابد أن تقترن كلمة الماضي بضمير يخصصها ويعرفها، والضمير الأدق هنا هو المثنى الغائب: "ماضيهما". أما بالنسبة لكلمة "الحاضر"، فهي وفقا لهذا التأويل ترمز للمحبوبة ذاتها، ومن هنا لابد من حذف كلمة الماضي ودمج الضمير الذي يعود على المحبوبة في الفعل: "وجدها فاقدة للذاكرة". أظن أن هذا هو المعنى المقصود وبذلك تكون الألفاظ المستعملة في الومضة فاقدة لدقتها ولا تؤدي إلا إلى تعميم معنى الومضة وإخراجها إلى طور الفكرة، فالماضي هنا هو الماضي المطلق كفكرة وكذلك الحاضر هو الحاضر المطلق كفكرة، بالرغم من أن المادة الخام للومضة جيدة، عدم الدقة في استعمال أدوات التعريف والتنكير وفي استعمال الضمائر أفقد الومضة بريقها ووضع حاجزا بينها وبين المتلقي.

وننتقل الآن إلى ومضة "انكسار[9]" لحنان الجاي أيضا. يقول نصُّ هذه الومضة:

أمام المرآة هالها ما رأته، صرخت: "إنك تزيفين الحقيقة سأحطمك".

المرآة: "وهل تجيدين غير ذلك!"

هذه ومضة جيدة وتتأثر فيها الكاتبة ببعض ومضات الكاتب الليبي جمعة الفاخري أو قصصه القصيرة جدا وكذلك بعض ومضات الكاتب المصري عصام الشريف. وتلعب هذه الومضة على وتر التباين بين صورة الذات عن نفسها وصورتها الحقيقية التي تكشفها مرآة لا تجامل. صدمة الذات من حقيقة صورتها في المرآة تجعلها لا تصدق ما تراه وتتهم المرآة بالكذب. ونكتشف من كلام المرآة أنها معتادة من صاحبتها على رد الفعل هذا، وكأن هذه المرأة منغلقة على ذاتها ولا تريد أن تعترف بواقعها.

الومضة هنا بها شخصيتان بارزتا المعالم والسمات. وبالرغم من أن المرآة في السياق المعتاد تعكس صورة من يقف أمامها ومن الممكن أن نقول بوجود علاقة انسجام بين الذات ومرآتها، نجد هنا أن المرآة والمرأة في حالة تنافر أو خصام أو صراع. وبالرغم من أن كلمة "المرآة" هنا معرّفة بالألف

[9] حنان الجاي. "6 ومضات". **ومضات سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر 2014**. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني ومجموعة سنا الومضة على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 63.

واللام، لا توجد مشكلة التعريف التي عانينا منها في ومضة "اللقاء الثاني"، فالجزء الأول من الومضة هنا مرويٌّ من منظور المرأة وبالتالي المرآة معرَّفة بالنسبة لها ولا ضرر من استعمال التعريف لأنه منسجم مع المنظور الداخلي المسلط على المرأة.

وهذا المنظور الداخلي ينقل لنا فزع المرأة مما تراه في مرآتها، وهو فزع ناتج في الغالب عن الصورة الجميلة التي تحب هذه المرأة أن ترى نفسها عليها. ولكن المرآة لا تجاملها وتنقل لها واقعها كما هو، وهو في الغالب واقع داخلي يتسق مع المنظور الداخلي المستعمل على الشخصية. ومن الواضح أن المرأة ذات مظهر خارجي جميل بشكل أو بآخر أو هكذا ترى نفسها في عيون المعجبين وتتوقع من مرآتها أن تظهر لها إعجابا مماثلا. وعندما لا تستطيع المرأة تحمُّلَ صراحة المرآة تهددها بأن تحطّمها، لنكتشف من رد فعل المرآة الوارد في شكل حوار على لسانها أن المرآة معتادة من هذه المرأة على ذلك الغضب وذلك التحطيم، الأمر الذي يجعلنا نرى في الومضة لحظة من حدث ممتد وعلاقة طويلة بين المرأة ومرآتها.

وعنوان هذه الومضة جاء في صيغة التنكير ليناسب الومضة أكثر بعيدا عن تدخل الراوي. وهذا الانكسار قد يدل على الانكسار الفعلي للمرآة في نهاية الومضة أو بالأحرى بعد نهايتها، وهذا تفسير ظاهري لأنه من الواضح أن المرأة لا تجرؤ على تحطيم مرآتها بدليل معرفة المرآة بتكرار

التهديد. وقد يدل الانكسار الوارد في العنوان على انكسار صورة الذات لدى المرأة وصدمتها من خواء روحها ومن المواجهة بينها وبين المرآة.

وننتقل الآن إلى الومضة الثالثة لحنان الجاي، وهي بعنوان "عودة[10]". يقول نص هذه الومضة:

بعد عودتي إلى وطني، سألوني: "ماذا فعلت الغربة بك؟"

أجبتهم: " هنا أم هناك؟"

يمكننا النظر إلى هذه الومضة على أنها صياغة أخرى جيدة لومضة "اللقاء الثاني"، فكلتاهما تتناول عودة الشخصية بشكل أو بآخر، وهذه العودة في "اللقاء الثاني" عودة زمانية ما بين الماضي والحاضر في كلا الاتجاهين، وهنا عودة مكانية، بمعنى أن الحركة تتم في المكان من موطن الغربة/الاغتراب إلى الموطن الأصلي للراوية. والحدث في ومضة "عودة" عبارة عن لقطة من حياة الشخصية/الراوية بعد عودتها إلى وطنها/موطنها الأصلي. وتقوم هذه الومضة – مثل ومضة "انكسار" – على الحوار الذي يكشف عن باطن الشخصية وما يدور داخلها من صراعات وعذاب.

[10] حنان الجاي. "6 ومضات". **ومضات سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر 2014**. الكتاب الرابع في سلسلة كتاب الومضات الشهرية الالكتروني. سلسلة شهرية تصدر عن دار حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني ومجموعة سنا الومضة على الفيسبوك. تحرير وتقديم: جمال الجزيري. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الالكتروني، 2014. ص 63.

obeikandl.com

يقوم هذا الحوار على التباين بين الظاهر والباطن أو على التباين في فهم الظاهر والباطن من قِبل الفئات المختلفة هنا: فهناك الراواية بعالمها الذي يبدو منفصلا عن عالم الشخصيات الأخرى، وهناك مجموعة الشخصيات الواردة بضمير الغائب الجمع وتنتمي للموطن الأصلي للراوية. هذه الشخصيات تنظر للغربة نظرة سطحية تقليدية وتعتبرها ابتعادا في المكان عن بلد الشخص، ولذلك يأتي سؤالهم نمطيا ينم عن نظرة للغربة تتمثل في أنها تفعل بالمرء الأفاعيل وتكون معادية له، وفي الوقت ذاته ينظرون لبلدهم أو المكان الذي يعيشون فيه سويا على أنه نقيض الغربة ولا توجد به أي جوانب تؤثر بالسلب على من يعيش فيه.

ومن الواضح أن الراوية تستنكر سؤالهم أو تستنكر رؤيتهم للغربة، فها هي ترد على سؤالهم بسؤال، ومنطق الحوار العادي يفترض أن ترد على سؤالهم هذا بإجابة محددة أيا كانت محتويات أو مضمون هذه الإجابة. والرد على سؤال بسؤال هنا – وهو خروج على منطق الحوار العادي – يعني أن المسئولة/الراوية تستجوب سؤالهم وتستجوب رؤيتهم للوطن ورؤيتهم الأحادية للغربة: فالراوية تشعر بالغربة في المكانين وكلا المكانين عامل طرد لها لا يحتويها.